اين يذهب الروّاد؟

من غرائب طبع الانسان حبّهُ للاكتشاف . فيضرب في مجاهل الأرض ويركب متونَ البحار ويمتطي أجنحة الرياح ويتجشم أعظم المشاق ويصبر على أنواع المكاره من قيظ وزمهرير وسغب ولغب، لكي يكتشف بلاداً جديدة أو يختط طريقاً لم تطأهُ قدم انسان من قبل . ولقد كان هذا دأبهُ من قديم الزمان . أما حينئذٍ فكان مدفوعاً بطلب الرزق وانتجاع المراعي والمناهل . وأما الآن فيندفع اليهِ بالملكة التي تملكت أسلافه قروناً كثيرة وحباً بالمنافسة والفوز على الأقران . ولولا ذلك ما عمرت الأرض بالسكان ولا انتشر فيها نوع الانسان . ومن هذا القبيل السعي الى اكتشاف القطبين وارتياد المناطق المتجمدة حولهما أو الاهتمام باجتياز البحار والقارات بطيارات تسابق النسور في الهواء ، ففي كل ذلك لا يجد الروّاد باباً للكسب ولا سبيلاً للرزق . لذلك تحيط بأسمائهم هالة من المجد لا يفوز بها كثيرون من العلماء لأن اقدامهم على اقتحام المخاطر وصبرهم وشجاعتهم في مجالدة الشدائد التي تعرض لهم تضرب على وتر حساس في النفس فينظر اليهم الناس نظرة الاعجاب والاكبار ويضعونهم في مرتبة بين الآلهة والناس

*

* *

انقضى سبع وعشرون سنة منذ ارتفع الستار عن ميدان الارتياد في القرن العشرين، بلغ فيها الروّاد الى أقاصي الأرض وساروا في مناكبها العامرة والغامرة شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، هنا يرودون صحراءَ قاحلة، وهناك يصعّدون في قنّة جبل شاهق، وهنالك يقتحمون مفازات من الجليد، أو أدغالاً تعجُّ بالحيوانات الضارية والأفاعي السامة. لم يبق أمامهم سوى أعلى طبقات الجوّ وأعمق أغوار البحار، وهذه قد أخذت تتذلّل أمام اقدام الطيّارين والغوّاصين، وابداع العلماء وما ابتكروهُ من غرائب المعدّات والأدوات للبحث والاكتشاف.

أبسط أمامك خريطة الارض ترَ في قلب آسيا وأفريقية وأميركا الجنوبية طرقاً معبدة تسير فيها سكك الحديد أو سيارات فورد أو تطير فوقها الطيارات والبلونات، وفي صدور الجبال انفاقاً تخترقها وعلى سطوح البحار مسالك الممالك الى الثروة والسلطان

أين المدن التي لم تفتح أبوابها للعلماء والرّواد؟ أين الجزائر التي لم تعيّن مواقعها وترسم خططها؟ أين الصحاري التي عجزت عن اختراقها قوافل الجمال ولم تخترقها قوافل السيّارات؟ أيُّ نهر من الأنهر العظيمة لم يعيّن منبعهُ أو لم يعرف مسيلهُ ومصبّهُ وما يدور حولهُ من الحقائق الجغرافية والعمرانية؟ ان قنن الجبال الشاهقة التي ردت عنها كبار المصعّدين بالأمس لا بدَّ أن تلين للطيارة والبلون في الغد، وقلب جزيرة غينيا الجديدة — أكبر الجزائر بعد قارة استراليا — الذي ما برح معتصماً بأسراره قد أخذ يفقد ما يحيط بهِ من الاسرار امام اقدام الروّاد والباحثين. فقد جاءَ في الأنباء الأخيرة

أن الأميركيين لهم بعثات علمية مختلفة تخترق ادغال غينيا الجديدة وترود مجاهلها

وهكذا نرى أن الستار أخذ ينسدل رويداً رويداً على رواية أخّاذة أحكمت وضعها العصور وما زالت منذ فجر التاريخ متصلة المشاهد متسلسلة الحلقات . ان العالم القديم الذي كان معروفاً للفينيقيين واليونانيين والرومانيين ، اتسع في القرون الخمسة الأخيرة اتساعاً عظيماً حتى شمل الكرة الأرضية بأسرها . لقد مهّدت السبل ، وعُيّنت المواقع ، وضبطت الحدود، وقيست المرتفعات والمنخفضات ورسمت الخرائط وكان للمخترعات الحديثة في ذلك الفضل الأعظم فأكمل الرّواد على متن البواخر والسيارات والطيارات عملاً بدأه اسلافهم سيراً على الأقدام أو ركوباً على الجمال أو سفراً في السفن الشراعية تتلقفها الأمواج وتتقاذفها الرياح

وأغرب ما في هذا التقدم سرعتُه . ففي العقدين الثامن والتاسع من القرن الماضي كان لفانستون وغيرهُ من الرّواد الأنكليز وغير الأنكليز قد كشفوا كثيراً من مجاهل القارة السوداء . على ان العلماء في مطلع القرن العشرين وجدوا رغم ذلك ، أميركا الجنوبية مجهلاً كبيراً ، وقلب آسيا معقلاً تحيط به الأسرار والصحراء الافريقية الكبرى والسودان تغطيهما بقاع لم تطأها قدم انسان، وكثيراً من جزائر الاوقيانوس الباسيفيكي نقطاً ترصع سطح اليم تعرف أسماؤها وتجهل مسمياتها ، وبلاد تيبت منيعة على المرتادين وعاصمتها لاسا حَرَماً عليهم ، والجوُّ ملكاً للنسور لا يطمع الانسان في مزاحمتها عليه

ولكن ما ذا نرى الآن وقد انقضت سبعٌ وعشرون سنة على ذلك؟ ها جنود الانكليز يقودهم الكولونيل يُنغ هَزْبند بنفسه يكتسحون (سنة ١٩٠٤) تيبت ويدخلون عاصمتها المقدسة . وها سيارات الفرنسويين تخترق الصحراء الكبرى حيث تعذر على قوافل الجمال أن تسير من قبل. وها بعثات الاميركيين بقيادة روزفلت آناً ترود مجاهل البرازيل وتكتشف أكبر نواصر الأمازون أو بقيادة الدكتور اندروز آناً آخر تخترق منغوليا تبحث عن آثار الانسان فتعثر على بيوض الدينوسورس المتحجرة التي يرجع عهدها الى عشرة ملايين من السنين . وها الحلم بانشاء خط حديدي من القاهرة الى الكاب أخذ يتحقق رويداً رويداً، بل قد يسبقهُ ويفوقه شأناً انشاء خط جوّي بين المدينتين. انك ترى الناس في الربع الأول من القرن العشرين وقد اعترتهم سورة المغامرة وحب الاكتشاف . فالسباق شديد الى اكتشاف القطبين . بيري يحاول الوصول الى القطب الشمالي يزاحمهُ نانسن وكوك ورُسْ . وأمندصن يسير الى القطب الجنوبي لا يقف الجليد في وجههِ ، ويسابقهُ اليهِ سكوت وشاكلتن . ثم هذا امندصن أيضاً بعد فترة الحرب العظمى يطير أولاً بالطيارة محاولاً بلوغ القطب الشمالي فيقصر عنهُ على نحو ١٣٦ ميلاً جغرافيًا منه ثم يفوز بالطيران فوقهُ بالبلون في السنة التالية وبين محاولتهِ الأول وفوزهِ يطير الكومندر برد الاميركي من سبتسبرجن الى القطب الشمالي ذهاباً وايابًا في ١٦ ساعة

لقد أخضعت عناصر الهواء، فغلب النسر على دولتهِ وصار فن الطيران بآلة أثقل من الهواء، الذي ولد في شهر دسمبر سنة ١٩٠٣، من وسائل المواصلات

التي ينتظر أن تعم العالم بأسره. ان فعال الطيارين في اجتياز المسافات الشاسعة ونقل البريد والركاب والبحث في طبقات الجوّ العالية ومسح الأراضي ومحاربة الحشرات نزعت من الجوّ أسراره وجعلت سبلهُ ممهدة لمطالب الانسان. ولقد كثرت بعثات الارتياد وتعددت غاياتها وأساليبها حتى أصبحت أخبار أكثرها عادية مهما عظمت المكتشفات التي تكتشفها وصار يتحتم على زعمائها أن يرضوا بالأمجاد الضئيلة التي تكون نصيب التابعين السائرين في أثر من تقدم من الروّاد

*
* *

كذلك انقضت الأعوام والقرون منذ فجر التاريخ إلى الآن، والروّاد يسيرون بعضهم في إثر بعض يحتقرون المشاق وينتصرون على العواصف، يفشلون آناً وينتصرون آونة، فعنت لهم الأرض وآتتهم خيراتها. إن صفحتهم لمن أنصع الصفحات في تاريخ العمران، بل ان حديث أقدامهم وثباتهم ونبلهم وتفانيهم قصيدة بلغية محكمة الأبيات تثير في النفس تلك النزعات العالية التي بها يتمجد الأنسان. واننا لا نتردد مطلقاً في الحكم بأن مقامهم في ترقية العمران يأتي بعد مقام العلماء والفلاسفة والمستنبطين بل قد يكونون واياهم في مستوى واحد

لذلك أفردنا لهم هذا الكتاب، فعسى أن يلاقي ما لقيه سابقه «أعلام المقتطف» من الوقع الحسن لدى مشتركي المقتطف ومريديه.

فؤاد صروف

القاهرة ٢٢ يوليو ١٩٢٧